المحاضرة الرابعة: بذور النصية في التراث

مما لا يمكن نكرانه أن التراث العربي القديم يحوي كثيرا من القضايا البلاغية والأسلوبية الحديثة، والتي تساعد في فهم النصوص وتحليلها، غير أن هذه القضايا مبثوتة ومتفرقة في هذه الكتب وهي في الغالب تفتقر للمنهج والتأصيل، فنجد آراء هنا وهناك، حتى إن دي سوسير نفسه لم ينكر جهود العرب في هذا المجال)، فكانت أعمالهم بمثابة المثير والمحفز الذي أسس عليه المفاهيم الحديثة للسانيات، ولعل أهم هذه المفاهيم :

[1. الانسجام:](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom2n1)

البحث في كيفية تماسك النص لا يقتصر فقط على دراسة وسائل الّربط اللّفظي، بل يتعداه إلى دراسة وسائل أخرى للتّماسك، تتجاوز الوسائلّ الصوتّية، والمعجمّية، والنحوّية إلى مستويات أعلى من التحليل كالمستوى الدلالي، وهو أحد المعايير السبعة للنصية .

فالانسجام النصّي أحد أهم المعايير الديبوجراندية التي تحقّق استمرارية النصوص، فالانسجام يهتم ببيان الترابط المفهومي في النص، أي إيضاح العلاقات الدلاليّة التي تربط معاني الأقوال. وتكمن أهمية هذا المعيار من حيث بناء النص بناء محكما متماسكا مترابطا.

ترجم مصطلح الانسجام عند كثير من اللسانيين بمصطلحات كثيرة، وهذا ما يجعلنا نصطدم بإشكالية في توحيد المصطلح في الاستعمال اللساني، إذ أصبح الدارس للسانيات النص في غالب الأحيان، يعجز عن التفريق بينهما، لكثرة استعماله بدلالات مختلفة، إلا أنه في المقابل يكثر استعماله بمصطلح الحبك وقد تبنى هذا المصطلح سعد مصلوح ومحمد العبد (سعد مصلوح 1997 : 154 و :287)، وقد أقر سبب اختياره لفظ الحبك كونه يتسم بالإفصاح والإبانة والتساوق، كما أنه أقرب شيء إلى المفهوم المراد وأكثر شيوعا، كذلك نجد أحمد عفيفي يترجم هذا المصطلح و يشير به إلى التماسك الدلالي أو المعنوي (صبحي إبراهيم الفقي، ج 1 : 96)، أما تمام حسان فقد فضل الالتحام (روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء : 103)، وترجمه أبو غزالة وحمد خليل بالتقارن (إلهام أبو غزالة، علي خليل أحمد 1999 : 11)، كما ترجمه فالح العجمي بالتناسق (فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر 1999 : 141)، وأطلق عليه إبراهيم محمود خليل الاقتران (إبراهيم محمود خليل 2015 : 221 )، ومنهم من يطلق عليه لفط التماسك كسعيد بحيري (سعيد بحيري 1997 : 108)، وأطلق عليه محمد خطابي بالانسجام (محمد خطابي1991 : 5)، ولم يفرق كثير منهم بين مصطلحي الاتساق والانسجام فهو عند بعضهم بمنزلة واحدة (محمد مفتاح 1992 : 100 ). نظرا للتداخل الكبير بينهما، غير أن الصواب أن الاتساق يتعلق بأدوات كالإحالة والحذف والاستبدال...، بينما الانسجام يتعلق بمجموعة من الآليات والعلاقات الدلالية تعمل على تحقيق الانسجام بين تلك العناصر، وقد آثرنا استخدام مصطلح الانسجام لشيوعه عند كثير من اللسانيين.

ورد الانسجام في الدراسات العربية البلاغية بمصطلحات كثيرة، ويطلق عند كثير منهم بالترابط والتلاحم والحبك وغير ذلك مما له علاقة بالنص، وبينوا كيف تترابط النصوص وتتآلف مكونة نصا، غير أنهم لم يُكونوا على قدر من الضبط لنظرية لغوية تعنى بالنصوص، إضافة إلى افتقارهم للمنهج العلمي، فكانت آراؤهم مبثوثة هنا وهناك، وركزت دراساتهم على المستوى المعجمي والبحث عن معنى اللفظة ومرادفاتها، وكانت في الغالب صونا للسان من الوقوع في الخطأ، وحفاظا على النطق العربي نطقا سليما، وحماية للغة من الضياع والاندثار، لكن حاجتهم لتفسير النصوص ألزمهم البحث عن طرق و كيفيات تساعدهم على ذلك.

ورغم أن الدراسات البلاغيَّة العربية القديمة لم تتجاوز المستوى التَّركيبي « إلى النطاق الدلالي للفقْرة الكاملة أو المتتالية النَّصِّية، فضلاً عن أنَّه لم يشمل نصًّا تامًّا في البلاغة القديمة »، (صلاح فضل 1992 : 244)، بيْنما يقوم تحليل النصوص على بناء فقْرة منه أو يشمل النَّصِّ كلِّه، ودراساتهم لم ترْقَ إلى معالجة النَّصِّ معالجة شاملة بوصفه وحدة كليَّة، إلا أن هناك بعض الجهود العربية لتناول مثل هذه المباحث.

[2. الانسجام في الدراسات العربية](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom1n3)

ولعل أهم من تناول مصطلح الانسجام في التراث العربي لكن ليس بنفس المصطلح والتسمية لكن بنفس المعنى والوظيفة :

[1.2. الجاحظ](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom2n2)

تحدث **الجاحظ**عن أهمية الانسجام من حيث بناء القصيدة بناء محكما و متماسكا ويؤكد الجاحظ على القيمة الجمالية للانسجام فيقول

« أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا. فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.. . وكـذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف، سهلة خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسـره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » (الجاحظ 1985م، ج 1 :67) .

فالانسجام عند **الجاحظ**يقوم على ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض، فتكون الألفاظ ملازمة للمعاني منصهرة في بوتقة واحدة، فتكون القصيدة كالبيت، والبيت ككلمة واحدة، والكلمة كالحرف، فارتباطها ببعضها البعض جعل منها كلا يصعب الفصل بين أجزائه، وهذا ما سماه النصانيون بالوحدة الكلية المترابطة الأجزاء.

ثم يواصل حديثه فيقول : « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر، ولم تجري مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع » ( الجاحظ 1985م، ج 1 :206).

ويعني **الجاحظ** بالأمثال المعاني المكرورة، وقد عاب على كثير من الشعراء هذا الصنيع، لأنه يحدّ من القيمة الجمالية للنص، ويفقد التلاحم بين أجزائه، فإذا كان عكس ذلك فإنه يجعل أجزاء الكلام بعضها متمما لبعض فيكون النص محكما متلاحم الأجزاء وقد أدرك الجاحظ أهمية هذا من حيث الترابط والتآلف لكل عنصر من عناصر النص.

[2.2. الجرجاني](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom2n3)

لا يمكن إنكار جهود **الجرجاني** في نظرية النظم والتي تناولها في كتابه دلائل الإعجاز حيث تُعّدُ النظرية أولى بوادر البحث اللغوي الذي استقى منه اللغويون الغرب كثيرا من دراساتهم وبحوثهم ومنطلقاتهم الفكرية، وهذا التقاطع والتشابه ليس وليد الصدفة بل هو نتيجة لجهود كبيرة أطلقها الغربيون لينهلوا من الثقافة العربية بعد احتكاكهم بها.

والنظم عند **الجرجاني** هو« أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه « علم النحو »، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها » (عبد القاهر الجرجاني1981 : 81)

فالنظم هنا طريقة تركيب الجمل السليمة بواسطتها يُتوصل إلى التعبير الصحيح عن المعاني وتمييز الجيد من غيره، بالاعتماد على كلام العرب وأشعارهم.

ومن خلال معالجته لمفهوم النظم في « دلائل الإعجاز » يبين الجرجاني أن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ديني بحت، يعتمد على إثبات جودة النظم في القرآن، ويسميه « المزية »، وأكدّ أن جودة النظم يمكن أن تعلو فوق قدرة البشر، إذ يقول« وذلك أنه لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قوى نظرهم عنها » (عبد القاهر الجرجاني 1981 : 249)

فقد قعّد **الجرجاني** لنظرية النظم وفرق بين الألفاظ والمعاني، وعن طريق نظرية النظم يمكن لنا فهم النصوص من خلال فهم مبادئ الفصل والوصل والتقديم والتأخير، هذه المبادئ لها دور كبير في انسجام النص.

[3.2. السيوطي](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom2n4)

يذكر لنا **السيوطي** فائدة المناسبة -والتي تحمل معنى الانسجام- أي مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها، وكذا السورة، فيقول قوله :« وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء » (السيوطي 1974، ج :3 : 372- 371 ).

ويضيف في موضع آخر وقال :

«الشيخ ولي الدين الملوي :قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له انتهى » (السيوطي، نفسه، ج 3 : 369- 370 ).

وعلاقة المناسبة بالانسجام كونها وسيلة من وسائله، وبها يتحقق الانسجام والتوافق الشكلي والدلالي بين الجمل وأجزاء النص، أما عن الهدف من الدراسات اللغوية العربية فهو ضبط اللسان من اللحن والحفاظ على النطق السليم ومراعاة البلاغة والبحث في فصاحة الألفاظ والكشف عن جودة هذه الألفاظ وكشف عربيتها وصحيحها من زيفها وما ذكره **السيوطي** تناوله اللغويون في العصر الحديث، وهدفهم من دراساتهم إيجاد آليات تجعل النص متماسكا.

[4.2. حازم القرطاجني](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom2n5)

لقد تحدث حازم **القرطاجني** في مؤلفه منهج البلغاء عن أوليات الدرس اللساني العربي خاصة ما يتعلق بالتماسك النصي، أو التناسب بين الأغراض والأوزان وبين حالة الشاعر النفسية وبين ما ينظمه من شعر، كما تحدث عن أشكال الترابط المعنوي ضمن أجزاء النص واستخدام عدة مصطلحات تقترب من مفهوم الانسجام كالتناسب والاقتران الذي يعد مطابقا للمفهوم الحديث للانسجام.

يقول عنها **القرطاجني** معلقا على إحدى قصائد المتنبي

« فاطرد له الكلام في جميع أحسن اطراد وانتقل في جميع ذلك من الشيء، إلى ما يناسبه، وإلى ما هو منه بسبب، ويجمعه إياه غرض، فكان الكلام بذلك مرتبا أحسن ترتيب، ومفصلا أحسن تفصيل وموضوعا بعضه من بعض أحكم وضع، فعلى هذا النحو يجب أن تكون المآخذ في استفتاحات الفصول ووضع بعضها من بعض ».

ويضيف **القرطاجني** الحديث عن الترابط الذي يكون بين عناصر النص ومكوناته، « فأما المتصل العبارة والغرض، فهو الذي يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علاقةٌ من جهة الغرض، وارتباطٌ من جهة العبارة » (حازم القرطاجني، د.ت : 290)، ففي هذا القول يبين **القرطاجني** أهمية الربط بين أجزاء النص.

كما تناول تماسك القصيدة وتناسب معانيها، إذ يقول « وينبغي أن تكون النقلة من أحد المعنيين إلى الآخر فيما قصد فيه التفريع متناسبة، وأن يكون ُالمعنى الثاني مما يحسن اقترانه بالأول ويفيد الكلام حسن موقع من النفس » (حازم القرطاجني، د.ت : 54)، والمناسبة هنا نوع من أنواع الترابط سواء أكان شكلا أم مضمونا.

وقد أسهم حازم **القرطاجني** من خلال مؤلفه منهاج البلغاء وسراج الأدباء في إثراء النقد العربي بالمفاهيم اللسانية الحديثة، كحديثه عن فكرة التماسك النصي، أو كما يسميها التناسب بين الأغراض و الأوزان وبين الإيقاع الشعري والحالة النفسية التي يعبر عنها الشاعر فما سعى إليه **القرطاجني** يكاد يوصلنا إلى تحديد منهج نقدي دقيق وثيق الصلة بالنص ويساهم في فهم كينونته، خاصة ما يتعلق بالتّناص والنظـم والتركيب والتماسك والتذوق النصي والوزن والإيقاع، باعتبار أن الوزن والتناسب الصوتي بين أجزاء الكلام يلعب دوراً مهماً في جذب النفوس، والنفوس لا تنجذب إلا للمتماسك والمتآلف.

مما سبق ذكره، يتضح لنا أن الانسجام قد وُجد في الدراسات العربية القديمة، حتى وإن اختلفت التسمية فالمضمون واحد، فالتراث اللغوي والبلاغي والنقدي مليء بمثل هذه المفاهيم، التي أرسى دعائمها النحويون والبلاغيون والنقاد العرب في الكشف عن كثير من القضايا اللسانية الحديثة، ولا يمكن الحديث عن المباحث اللسانية الحديثة دون العودة إلى التراث العربي، الذي أكد فيه البلاغيون العرب أن النص يجب أن يكون كلا موحدا متماسك الأجزاء، جود السبك، وحددوا بعض القواعد التي تحكم تماسك النص، اعتمد عليها النصّانيون الغرب في إنشاء نظريات لسانية ذات أصول عربية، فالعرب وإن كان لهم السبق إلا أنهم كانوا يفتقرون للمنهج، فقد كانت أفكارهم مبثوثة في بطون الكتب النحوية والبلاغية والنقدية، وعليه وجب استثمار تلك الآراء المبثوثة في الكتب لإغناء اللسانيات العربية الحديثة[.](https://aleph-alger2.edinum.org/2477?lang=ar#tocfrom1n5)

مما سبق يظهر لنا أن المفاهيم اللسانية الغربية الحديثة موجودة في تراثنا على اختلاف استعمالاتها وتوظيفها، فوظيفة اللساني هي إعداد أنظمة و قواعد للسان المدروس أو صياغته صوريا، فكذلك كان عمل النحوي والبلاغي والمفسر والأصولي.

فقد نشأت دراسات اللغة في أول ظهورها عند العرب نشأة وصفية رغم أن الكثير من اللسانيين يعتمدون على المناهج التاريخية لدراسة اللغة، « فتاريخ دراسة اللغة ليعرض علينا في بدايته محاولة جديدة إنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة يقوم على جمع المادة وروايتها ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائـها والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم » (تمام حسان 2001 : 22-23).

فجمع اللغة وتدوين الملاحظات والاعتماد على المقابلة المباشرة وغير المباشرة والملاحظة الدقيقة وكذا الآليات الدقيقة كالاستنباط والاستقراء ساعد على وجود هذه المفاهيم في التراث العربي، فالعرب في جمعهم للغة وما يتعلق بها لم يولوا اهتمامهم بالتتبع التاريخي لها، وكانت دراساتهم مبثوثة في بطون الكتب رغم افتقارها للمنهج.

ولا يمكننا فهم أي نظرية لسانية دون ربطها بأسباب نشأتها وظروفها الإبستيمولوجية، فكل النظريات اللسانية تتأثر بما يحيط بها، فتقترض من محيطها المصطلحات والمفاهيم قدر الحاجة، ومع التطور تتكيف هذه المصطلحات مع البيئة الجديدة.

ولقد كان للعرب ممارسات نصية لم يسبقهم إليها أحد، وكانت أولى مظاهر الممارسة مع القرءان الكريم، كل هذا أدى إلى اهتمام النحويين و البلاغيين والأصوليين بهذه الممارسة النصية وإن كانت مبثوثة في بطون الكتب، ولم يفرد لها علم مستقل، أفرزت هذه الممارسات آراء نقدية ساهمت بشكل كبير في إثراء الأرضية اللسانية النصية الغربية، إذ تعد البلاغة العربية القديمة موطئ قدم لهذا العلم الجديد، وقد أخطأ من ظن أن البلاغة العربية القديمة جهاز أو نظام معطل لا يرقى إلى مستوى الممارسة النصية الغربية الحديثة، فنظرية النظم مثلا محاولة من الجـرجاني فهم التراث العربي، فتح به الجرجاني مقفل الإشكالات القائمة بين اللفظ والمعنى، كما كانت آراء السكاكي في مدرسته الشمولية أكبر دليل على تطور الفكر العربي، إذ شبه العلوم اللسانية بالشجرة التي أصلها ثابت في قواعد اللغة وفروعها في السماء تشمل على جميع أنواع الكلام.

ولعل هذه المفاهيم المبثوثة في بطون الكتب التراثية، لم تكن لتنشئ نظرية لسانية عربية محضة كونها تفتقر لكثير من المفاهيم اللسانية الغربية الحديثة، إضافة إلى أن هذه الآراء لم تشكل نظرية متكاملة، وهذا يدعونا إلى أن نحاول التأصيل لهذا العلم، معتمدين في ذلك على ما أفرزته اللسانيات النصية الغربية، ومن هنا نقول بأن التفكير اللساني أو المفاهيم اللسانية النصية موجودة في تراثنا ويمكن لنا أن ننشئ من خلالها ما يمكن أن يماثل اللسانيات النصية الغربية الحديثة.

مما سبق يظهر لنا أن الانسجام يتعلق بربط معاني الجمل في النص، وذلك عن طريق مجموعة من الروابط أو العلاقات، إضافة إلى أنه يعتبر من أهم المعايير المحققة للنصية.

**المراجع باللغة العربية**

1/إبراهيم محمود خليل، 2015، في اللسانيات ونحو النص؛ دار المسيرة، ط3، عمان، الأردن.

2/أبو بكر جلال الدين السيوطي، 1974، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

3/أحمد عفيفي، 2001، نحو النص، اتّجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1.

4/آزوالد ديكروا، سشايفر (ج.م) د ط. د ت، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر : منذر عياشي، المركز الثقافي العربي.

5/إلهام أبو غزالة، علي خليل أحمد، 1999، مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية ديبوجراند وولفجانج دريسلر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

6/تمام حسان، 2000، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4.

7/الجاحظ، 1985، البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة، ط5.

8/جاك موشلر وآن ريبول، 2010، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة مجموعة من الباحثين، المركز الوطني للترجمة الناشر، دار سيانترا، تونس، ط2.

9/ج يول، و ج بـراون ؛ 1997، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، النشر العلمي والمـطابع، جامـعة الملك سعـود، الريـاض، م.ع.س.

10/جميل عبد المجيد، 1998، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

11/حازم القرطاجني، د.ت، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب، تونس، الدار العربية للكتاب، ط2.

12/حسام أحمد فرج، 2009، نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2.

13/خليفة بوجادي، 2009، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، ط 1 الجزائر.